

شروط الانتقاد على السادة

الصوفية

تأليف:

عدنان عبد الله زهار

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان  
الأكملان على سيدنا ومولانا محمد أشرف المخلوقين،  
وعلى آله وأزواجه الطيبين الطاهرين، وصحابته الكرام  
الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؛ فإن الحقائق العلمية والتصديقات المعرفية  
لا تظهر ناصعة ولا ينكشف أمرها جليا إلا بالمناقشة  
والمحاورة، والأخذ والرد والمساجلة والمذاكرة. ولذلك  
فإن المطلع على تاريخ الثقافة الإسلامية الواسع يرى  
هذا قد غلب على أكثر المصنفات في مختلف العلوم  
والفنون. فقد كان لأهل العصور السابقة إقبال منقطع  
النظير على مراجعة الأقوال بين أهل العلم، واهتمام  
بالغ بالنقد والتصحيح والاستدراك والرد. حتى أضحى  
الرد فنا مستقلا بذاته، له قواعده وآدابه، لا يخالف في  
ذلك إلا منكر للمحسوس المشاهد.

وإن قوما ممن ضعفت مداركهم يرون أن الاشتغال  
بالرد والنقد مضيعة للوقت وتشتيت للجمع وكسر  
للألفة وتهشيم للمودة، وما علموا أن بقاء العلم واستمرار  
نموه وتصحيح مسأله وضبط مباحثه لا يكون إلا  
بالمحاورة والأخذ والرد والمجادلة والمناظرة...

قال القنوجي في "أبجد العلوم"<sup>1</sup>: "علم الجدل: هو علم باحث عن الطرق التي يقتدر بها على إبرام أي وضع أريد ونقض أي وضع كان، وهو من فروع علم النظر ومبنى علم الخلاف..."

"...وفائده كثيرة في الأحكام العملية العلمية من جهة الإلزام على المخالفين، ودفع شكوكهم، كذا في "مفتاح السعادة"، ولا يبعد أن يقال: إن علم الجدل هو علم المناظرة لأن المآل منهما واحد، إلا أن الجدل أخص منه". اهـ.

وفي "كشف الظنون" لحاجي خليفة الجامع للإنتاج الفكري العظيم لعلماء الأمة، وكذا في ذيوله المشهورة برهان لما سمعت من اشتغال العظماء من العلماء بالردود على بعضهم تمحيصا لقول قيل أو استدراكا أو تصحيحا...

**ففي التوحيد** نذكر كتاب "الرد على المشبهة في قوله تعالى: { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }"<sup>2</sup>. للقاضي بدر الدين ابن جماعة.

**وفي فقه الحديث:** "الدر النقي في الرد على البيهقي"  
لعلاء الدين ابن التركماني.

"الدر المنيف في الرد على ابن أبي شيبة عن  
الإمام أبي حنيفة" لأبي محمد القرشي.

"الدر النصية في الرد على ابن تيمية" لكمال  
الدين ابن الزملكاني.

**وفي علم الرجال نذكر:** "الرد الوافر على من زعم  
أن من أطلق على ابن تيمية شيخ الإسلام كافر" لابن  
ناصر الدين الدمشقي.

"الرد على المتعصب العنيد المانع من ذم يزيد"  
لابن الجوزي.

**وفي اللغة:** "الرد على من نسب رفع الخبر بـ"لا" إلى  
سيبويه" لابن الفخار الجذامي.

**وفي التصوف** "لوائح الأنوار في الرد على من أنكر  
على العارفين لطائف الأسرار" لسراج الدين الغزنوي  
الهندي... الخ.

هذا، وقد كثر من جماعة من الناس قديما وحديثا الانتقاد والرد على السادة الصوفية { وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا }<sup>3</sup>. ، إذ الانتقاد في حد ذاته أمر محمود والرد شيء مقرر مقبول، لكن إذا خالطه التعصب والاعتساف، خرج النقد عن فائدته وصار ضدا على صاحبه.

ولذلك ترى القوم - رضي الله عنهم - مقرين بالخلاف وعاذرين المخالف لما أنه لم يغرف من واديههم ولم يُسق من بحار معارفهم، فله أن يخالف ويستغرب ويعاكس. لكن جعلوا لذلك حدودا وضوابط وشروطا وقواعد، خوفا أن يسلك المنتقد طريق المبارزين الله بعداوة أوليائه، وسدا لذريعة الخوض فيما لا يحسنه فيصدر منه إذايته لله ورسوله وأصفيائه.

قال العارف بالله الشعراني - رضي الله عنه - في "اليواقيت والجواهر"<sup>4</sup>: "وكان شيخ الإسلام المخزومي يقول: لا يجوز لأحد من العلماء الإنكار على الصوفية إلا إن سلك طريقهم ويرى أفعالهم مخالفة للكتاب والسنة. وأما الإشاعة عنهم؛ فلا يجوز به الإنكار عليهم"...

3 - المجادلتي، 10

4 - ص 16.

ثم قال: "وبالجملة؛ فأقل ما يجب على المنكر حتى يسوغ له الإنكار: أن يعرف سبعين أمرا، ثم بعد ذلك يسوغ له الإنكار:

**منها:** غوصه في معرفة معجزات الرسل على اختلاف طبقاتهم وكرامات الأولياء على اختلاف طبقاتهم، ويؤمن بها، ويعتقد أن الأولياء يرثون الأنبياء في جميع معجزاتهم إلا ما استثنى.

**ومنها:** اطلاعه على كتب التفسير والتأويل وشرائطه. ويتبحر في معرفة لغات العرب في مجازاتها واستعاراتها حتى يبلغ الغاية.

**ومنها:** كثرة الاطلاع على مقامات السلف والخلف في معنى آيات الصفات وأخبارها، ومن أخذ بالظاهر ومن أوّل ومن دليله أرجح من الآخر.

**ومنها:** تبحره في علم الأصوليين ومنازع معرفة أئمة الكلام.

**ومنها:** وهو أهمها: معرفة اصطلاح القوم فيما عبروا عنه، من التجلي الذاتي والصوري وما هو الذات وذات الذات، ومعرفة حضرات الأسماء والصفات، والفرق بين

الحضرات وبين الأحديّة والواحدية، ومعرفة الظهور والبطون، والأزل والأبد، وعالم الغيب والسكون، والشهادة والشؤون، وعلم الماهية والهوية والسكر والمحبة، ومن هو الصادق في السكر حتى يسامح ومن هو الكاذب حتى يؤخذ، وغير ذلك. فمن لم يعرف مرادهم كيف يفهم كلامهم أو ينكر عليهم بما ليس من مرادهم؟! اهـ.

**قلت:** ولذلك خطأ العلماء المنتقدين على الصوفية انتقادهم وضلوا مذهبهم لافتقار هؤلاء إلى الشروط المذكورة آنفاً في كلام الشيخ المخزومي رحمه الله. "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"<sup>5</sup>.

وقال شيخ الإسلام ابن حجر الهيتمي في "الفتاوى الحديثية"<sup>6</sup>: "وأما مطالعة كتبه<sup>7</sup>؛ فينبغي للإنسان أن يعرض عنها بكل وجه أمكنه، فإنها شتمت على حقائق يعسر فهمها إلا على العارفين المتضلعين من الكتاب والسنة، المطلعين على حقائق المعارف وعوارف

5 - رواه الترمذي في "سننه" 4/558 ح 2317 عن أبي هريرة رضي الله عنه.

6 - ص 388.

7 - أي: كتب الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين ابن العربي الحاتمي رضي الله عنه.

الحقائق، فمن لم يصل لهذه المرتبة يُخشى عليه منها  
مزلةً القدم، والوقوع في مهامه الحيرة"...

ثم قال: "وأيضاً؛ ففي تلك الكتب مواضع عُبر عنها  
بما لا يطابقه ظواهر عباراتها اتكالا على اصطلاح مقرر  
عند واضعها، فيضهم مطالعها ظواهرها الغير المرادة،  
فيضل ضالالا مبينا".

"وأيضاً؛ ففيها أمورٌ كشفية وقعت حال غيبته  
واصطلام، وهذا يحتاج إلى التأويل، وهو يتوقف على  
إتقان العلوم الظاهرة، بل والباطنة". اهـ.

ثم إن المنتقدين على أهل الله - رضي الله عنهم -  
صنفان:

**طائفة** انتقدت عليهم أمرهم كله جملة وتفصيلا،  
وردت علمهم بالكلية، وجهلوا أهله، وانتقصوا منهم، بل  
وكفروهم وأعلنوا رايته الحرب عليهم... وهم صنف  
المحرومين، لا حرمننا الله من فضله.

**والطائفة الثانية:** أنكرت بعض جزئيات علمهم  
الشريف، أو استنكرت أسراراً غابت عنها في فهم هذا  
المسلك النبيل المنيف، فرد أهلها أمورا أغلق فهمها على



أذهانهم واستقبحوا عبارات بعض المفتوح عليهم. وقد يكون من هؤلاء صوفية أخيار، وأهل إقبال على الله وزهد وتنسك من الصالحين الأبرار، لكن هذا الأمر فتح، والفتح رزق، { وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ }<sup>8</sup>.

فيوجد عند بعضهم من العلم والبيان، والكشف والإلهام، والسقي من أبحر المعرفة ما لا يتمتع غيره بمعشاره أو أقل، فينقد هذا على هذا، وهو لعمرى معذور غير مؤاخذ، لما أنه أنكر ما حجب عنه فهمه ولا بلغه إدراكه.